

برنامج عملي للفوز بمحبة الله (٣)

ذكر النعم

المعرفة هي طريق المحبة الصادقة لله عز وجل؛ ومع ذلك فإن المعرفة تحتاج دومًا إلى تذكير يتجاوب معه الفكر والعاطفة، هذا التذكير الدائم من شأنه أن يبذر بذور المحبة في القلب، ويشكّل قاعدته في المشاعر والوجدان.

ومع أهمية التذكير الدائم تأتي الأعمال الصالحة ذات الصلة بموضوع المحبة؛ لتكون بمثابة الماء الذي يسقي بذور المعرفة بالله الودود، فتتمو شجرتها ويرتفع بنياها، لتكون النتيجة هي استحواذ حب الله على أكبر قدر من مشاعر الحب داخل القلب، **{ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا }** [النساء: ٦٦].

- ذكر النعم:

من طبيعة الإنسان أن مشاعر الحب داخله تتوجه لمن يُعطيهِ ويُحسِنُ إليه، وكلما ازداد العطاء ازداد الحب، خاصةً إذا ما كان العطاء بلا مقابل، وصدق من قال: الإنسان عبد الإحسان.

وتحكي لنا كتب السيرة عن أحد المشركين وهو صفوان بن أمية، وكيف كانت مشاعره تجاه الرسول صلى الله عليه وسلم، هذه المشاعر التي كان يسيطر عليها البغض والكراهة، تبدلت تمامًا حتى صار رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب الناس إليه بسبب عطاءه المتواصل له من غنائم حنين والطائف.

فإن قُلْتُ: ولكننا لا نستشعر ذلك بشكل كافٍ تجاه الله عز وجل مع ما أسبغ علينا من نعمٍ لا تُعد ولا تُحصى!! نعم، نحن نعيش في هذه الحالة - حالة الجحود للربِّ المنعم الودود - لأننا غرقى في نعمه، وفي الوقت نفسه لا نسمح لعقولنا بتذكرها، ولا لأعيننا برؤيتها، لأننا قد ألفنا تواصلها علينا حتى نسيناها.

لقد انشغلنا بِجَمْعِ النعم، ولم نلتفتْ إلى من أنعمَ بها علينا؛ فخفتت مشاعرُ الحبِّ تجاهه سبحانه؛ من هنا نقول: إن أهم عمل صالح يورث المحبة وينميها هو ذكر النعم وربطها بالمنعم: **{ فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ }**

لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ { [الأعراف: ٦٩]، قال صلى الله عليه وسلم: ((أَجِبُوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ (...))^(١).

العبادة المهجورة:

الأمر اللافت للانتباه أن هناك العديد من الآيات القرآنية التي تحثنا على القيام بهذا العمل العظيم: **{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ }** [فاطر: ٣]، **{ وَادْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ }** [البقرة: ١٩٨].

إنَّ التفكير في النعم التي تحيط بنا من كل جانب وربطها بالمُنعم له دور كبير في استثارة العقل، وتأجيح مشاعر الامتنان لله عز وجل، ومن ثمَّ الخروج من حالة الغفلة إلى اليقظة والانتباه، لذلك كان ذكْرُ النعم من أفضل العبادات.

وفي هذا المعنى يقول أبو سليمان الواسطي: (ذِكْرُ النعم يُورثُ الحبَّ لله عز وجل)، ويقول الجنيد: (إن الرضا يُنالُ بالتفويض، والتفويضُ يُنالُ بالحبَّة، والحبَّةُ تنالُ باشتغالِ القلبِ بالذكرِ في نعمِ الله عز وجل)^(٢)، ويؤكد عمرُ بن عبد العزيز على أهمية هذه العبادة فيقول: (التفكُّرُ في نعمِ الله أفضلُ العبادة)^(٣).

كيفية ذكر النعم:

وذكر النعم يكون بالعمل على إحصائها - قدر المستطاع - من خلال الجوانب المختلفة التي تم الحديث عنها: (نعم سبق الفضل - نعم الهداية والعصمة - نعم العافية - نعم التسخير - نعم القيومية والحفظ - نعم الإمهال والستر - نعم اللطف والرحمة ...).

فمن خلال توجيه الفكر إلى جانبٍ من هذه الجوانب يمكن للواحد منا أن يُعمل عقله في تذكر ما أنعم الله به عليه في هذا الجانب، حبذا لو قام بتسجيل هذه النعم كتابةً، حتى يسهل عليه الرجوع إليها في أي وقت شاءه وقراءتها، وهذا من شأنه أن يستثير مشاعر الحب لله عز وجل داخله.

(١) رواه الترمذي، (٣٧٨٩)، والحاكم في المستدرک، (٤٧١٦)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في الحلية، (٢١١/٣)، وضعفه الألباني، ومن غريب الحديث؛ "يغذوكم" يرزقكم.
(٢) المحبة لله سبحانه، الجنيد، ص(٧٥)، دار المكتبي، سوريا.
(٣) استنشاق نسيم الأنس، ابن رجب، ص(٤٩).

ومع قيام المرء بالتفكير في نعم الله عليه، والاجتهاد في إحصائها مع نفسه، فعليه كذلك أن تكون له مجالس مع أهله وأصدقائه يتذكرون فيها نعم الله عليهم، ولقد كان الصحابة والسلف يجلسون مثل تلك المجالس التي تُذكرهم بفضل الله عليهم وتزيدهم حبًّا له.

فمن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه، فقال: ((مَا أَجَلَسْتُكُمْ؟ قالوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنُحَمِّدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: اللَّهُ مَا أَجَلَسْتُكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قالوا: اللَّهُ مَا أَجَلَسْنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جَبْرِيْلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ))^(٤).

وجلس الفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلةً إلى الصباح يتذكرون النعم، فجعل سفيان يقول: (أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا فِي كَذَا، أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا فِي كَذَا، أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا فِي كَذَا، فَعَلَّ بِنَا كَذَا، فَعَلَّ بِنَا كَذَا)^(٥).

فلنجلس مثل هذه المجالس المباركة، وبخاصة مع الأهل والأولاد، لنزداد حبًّا لله عز وجل، وحبذا لو كانت هذه المجالس بعد النعم الكبيرة التي تمرُّ بالأسرة؛ كنجاح وتفوق الأولاد، وصيام رمضان وقيامه ... إلخ.

القرآن يُعَلِّمُنَا:

ونحن بهذه الطريقة نتعلم ونقتدي بالقرآن حيث كان يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النعم الإلهية الكبيرة ليذكِّره وأصحابه بها، وبما أنعم الله عليهم من خلالها؛ فيزدادوا له حبًّا وشكرًا.

فبعد بدرٍ وما كان فيها من نصر مبین نزلت سورة الأنفال تُدَكِّرُ بنعم الله العظيمة التي صاحبت هذا النصر: {إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ - وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ - إِذْ يُعَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ - إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَيُّ مَعَكُمْ فَثَبَّثُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [الأنفال: ٩ - ١٢].

(٤) رواه مسلم، (٢٧٠١).

(٥) الشكر، ابن أبي الدنيا، ص(٥٠).

وبعد غزوة الأحزاب: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا - إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا } [الأحزاب: ٩، ١٠].

- رحلات الاعتبار:

والمقصد من رحلات الاعتبار هو الذهاب إلى الأماكن التي يتواجد فيها أهل البلاء؛ كالمستشفيات والملاجئ، ودور الأيتام وأصحاب الاحتياجات الخاصة، فهذه الرحلات لها دور كبير في إدراك حجم النعم العظيمة التي أمدنا الله بها وأغرقتنا فيها، وحبذا لو اصطحبنا في هذه الرحلات أهلنا وأولادنا ليدركوا معنا عظيم فضل الله.

زُرَّ السجن يوماً لتعرف قيمة نعمة الحرية!!

زُرَّ أقسام الحروق والكسور وأصحاب الحالات الحرجة لتدرك قيمة نعمة العافية!!

أغمض عينيك وتفكر في صعوبة الحياة بدون إبصار!!

تحيل نفسك، وأنت تشاهد الأخبار، مكان أصحاب المجاعات والزلازل والحروب والنكبات، ثم ردد:
يا ربِّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

ولا تنسَ أن تقول عند رؤية أهل البلاء: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به، وفضلني على كثيرٍ ممن خلق تفضيلاً.

- كثرة الحمد:

حمد الله باللسان عملٌ صالحٌ يحبه الله عز وجل، فعلياً أن نُكثِر منه، ولكي يؤتي هذا الذكر ثماره المرجوة في تنمية المحبة لله في القلب، علينا أن نجتهد في مواطأة القلب اللسان وقت الذكر، أو بعبارةٍ أخرى تجاوب المشاعر مع اللسان، والطريقة المُيسِّرة لذلك أن نستفيد من الأوقات التي تُستتار فيها مشاعر الحب لله عز وجل كوقت تذكر نعمه المختلفة، وجوانب رحمته ولطفه وشفقته بعباده، وعند رؤية أهل البلاء والنقص.

فعندما نجد انفعالاً وجدانياً وتأثراً لمظهر من مظاهر حب الله لعباده، علينا أن نسارع بحمده سبحانه، فيواطئ اللسان القلب، فيزداد التأثير والانفعال، ومن ثمَّ تزداد المحبة أكثر وأكثر.

وصيغُ الحمد كثيرة، علينا أن نختار منها ما يناسب حالتنا الشعورية.

والطريقة الثانية التي من شأنها أن تجعل الذكر نافعا، هي أن نجتهد قبل الذكر في استثارة مشاعر الحب، من خلال التفكير في جوانب حب الله لعباده، فإذا ما تجاوب القلب وانفعلت المشاعرُ بدأنا الذكر، يقول الحسن البصري: (إنَّ أهلَ العقلِ لم يزالوا يعودون بالذكرِ على الفكرِ، وبالفكرِ على الذكرِ؛ حتى استنطقوا القلوبَ فنطقت بالحكمة)^(٦).

- مناجاة الله بالنعم:

من الأعمال الصالحة التي تُورث المحبة والقرب من الله: مناجاته سبحانه بذكر نعمه التي أنعم بها علينا، كما فعل إبراهيم عليه السلام في مناجاته لربه: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ } [إبراهيم: ٣٩].

من صور المناجاة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((دعا رجلٌ من الأنصارِ من أهلِ قباءِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فلما طَعِمَ وغسَلَ يَدَهُ - أو قال: يديه - قال: الحمدُ لله الذي يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ، مَنْ عَلَيْنَا فهدانا، وأطْعَمَنَا وسَقَّنَا، وكلِّ بلاءٍ حسنٍ أبلانا، الحمدُ لله غيرِ مودِّعِ ربي، ولا مُكافِءٍ ولا مُكفِّرٍ ولا مُستغنى عنه، الحمدُ لله الذي أطعَمَ من الطعامِ، وسقى من الشرابِ، وكسا من العُرْيِ، وهدى من الضلالةِ، وبصَّرَ من العمى، وفضَّلَ على كثيرٍ ممن خلقَ تفضيلاً، الحمد لله ربِّ العالمين))^(٧).

فلتكن - أخي - مناجاتنا لله بالثناء عليه ومدحه، والاعتراف بنعمه، ولنداوم على ذلك حتى نذوق حلاوة حبه، فنصل من خلال المناجاة إلى استشعار قربه منا وكأننا نراه فنكلمه على الحضور.

أفضل أوقات المناجاة:

ومن أفضل أوقات المناجاة على الإطلاق ذلك الوقت الذي يجد فيه المرء قلبه حاضراً معه، ومشاعره متأججةً ومتجهةً نحو ربه.

(٦) إحياء علوم الدين، الغزالي، (٥ / ٦).

(٧) رواه النسائي في السنن الكبرى، (١٠١٣٣)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٤٣٧٧). والحاكم في المستدرک، (٢٠٠٣)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

أما أفضل الأوقات بالنسبة لساعات الليل والنهار؛ فمما لاشك فيه أن المناجاة بالليل، خاصة في جوفه ونصفه الأخير، لها تأثيرٌ عجيبٌ على القلب، وكيف لا وقد وصفها الله بذلك: **{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً}** [المزمل: ٦]، فأفضل الأوقات التي يمكن أن يحدث فيها مواطأةٌ بين القلب واللسان هي ساعات الليل؛ قال صلى الله عليه وسلم: ((أقرب ما يكون العبدُ من ربه في جوفِ الليلِ الآخِرِ))^(٨).

وروى أبو نعيم بإسناده عن حسين بن زياد قال: (أخذَ فضيلُ بن عياض بيدي فقال: يا حسين، ينزلُ اللهُ تعالى كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا فيقول: كذبَ من ادَّعى محبتي، فإذا جنَّه الليلُ نامَ عني، أليس كلُّ حبيبٍ يحبُّ الخلوَّةَ بحبيبه، ها أنذا مطلعٌ على أحبائي إذا جنَّهم الليلُ، مثلت نفسي بين أعينهم فخاطبوني على المشاهدة، وكلموني على الحضورِ، غداً أُقرُّ أعين أحبائي في جناتي)^(٩).

وعن عنبسة بن الأزهر قال: (كان محارب بن دثار - قاضي أهل الكوفة - قريب الجوار مني، فرمما سمعته في بعض الليل يقول وهو يرفع صوته: أنا الصغيِّرُ الذي ربَّيته فلك الحمد، وأنا الضعيفُ الذي قويته فلك الحمد، وأنا الفقيرُ الذي أغنيته فلك الحمد، وأنا الغريبُ الذي وصلَّته فلك الحمد، وأنا الصعلوكُ الذي مؤلَّته فلك الحمد، وأنا العزبُ الذي زوَّجته فلك الحمد، وأنا السَّاعِبُ الذي أشبعته فلك الحمد، وأنا العاري الذي كسوته فلك الحمد، وأنا المسافرُ الذي صاحبتَه فلك الحمد، وأنا الغائبُ الذي أدَّيته فلك الحمد، وأنا الراجلُ الذي حملته فلك الحمد، وأنا المريضُ الذي شفَّيته فلك الحمد، وأنا السائلُ الذي أعطيته فلك الحمد، وأنا الداعي الذي أجبتَه فلك الحمد، فلك الحمدُ ربَّنَا حمداً كثيراً على حمدٍ لك)^(١٠).

سُجُودُ الشُّكْرِ:

ومن أفضل أوقات المناجاة والثناء على الله بنعمه أثناء سجود الشكر؛ ففي هذا السجود يكون الإنسان في حالةٍ من التأثر، والتأجج المشاعري لما يرى من إحسان ربه عليه، لذلك علينا أن نستثمر هذا الوقت بمناجاة الله وذكر نعمه، ليزداد الحب والشعور بالامتنان تجاهه سبحانه.

(٨) رواه الترمذي، (٣٥٧٩)، وقال: حسن صحيح غريب، والحاكم في المستدرک، (١١٦٢)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ورواه ابن خزيمة، (١١٤٧)، وقال المناوي (٦٩/٢): قال الحاكم على شرط مسلم، وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (١١٧٣).

(٩) استنشاق نسيم الأنس، ابن رجب، ص(٨٧).

(١٠) الشكر، ابن أبي الدنيا، ص(٧٥).